الجنــائــز

□ الجنائز □

جدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقرّه ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، ألا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلّع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار ولا تربص إلا له ، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى ، ويراها في أهل القبور ، فإن كل ما هو آت قريب ، والبعيد ما ليس بآت ، ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدّد ذكره على القلب ، ولا يتجدّد ذكره إلا عند التذكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر في المنبهات عليه(١).

فاحذر الموت فإنه الخطب الأفظع ، والأمر الأشنع ، والكأس التي طعمها أكره وأبشع ، الهادم للذات ، والأقطع للراحات ، والأجلب للكريهات .

وبين يدي الموت رسل من أمراض وأوصاب وأشجان ، وصدق رسول الله ﷺ إذْ يقول : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء »(٢).

وقال ﷺ : « ما اختلج(٣) عرق ولا عين إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر »(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٧٥) .

(٢) صحيح : رواه سعيد بن منصور في سننه ، وأبو نعيم في الحلية عن مسروق مرسل بسندٍ صححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٥٩٣ .

(٣) اختلج : اضطرب وارتعد .

(٤) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط والضياء عن البراء وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٣٩٧ .

وقال ﷺ : « ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق »(١).

وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم »(٢) .

والمؤمن الذي يبتليه الله بمرض فلا يشكو الله عز وجل إلى عوّاده ، ولو بأنين أدبًا مع الله عز وجل ولسان حاله يقول :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ

فماذا يكون جزاؤه ؟

قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي المؤمن فلم يشكني إلى عوّاده أطلقته من إساري ، ثم أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ، ودمًا خيرًا من دمه ، ثم يستأنف العمل »(٣).

وقال ﷺ : « ما من مسلم يصاب في جسده إلا أمر الله الحفظة : اكتبوا لعبدي في كل يوم وليلة من الخير ما كان يعمل ، ما دام محبوسًا في وثاقي »(٤).

قُطع إصبع امرأة فتح الموصلي فضحكت ، فقيل لها : يقطع إصبعك وتضحكين؟؟ فقالت : حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها .

وإذا ابتلى الله عبده بحمى فصبر ، فهي حظه من النار جزاءً وفاقًا .

قال ﷺ : « أبشر فإن الله تعالى يقول : هي ناري ، أسلطها على عبدي

---

(١) صحيح : رواه أحمد والضياء عن عبادة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٨٨ .

(٢) حسن : رواه الترمذي ، وابن ماجة ، والحاكم في مستدركه عن عقبة بن عامر ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٣١٦ .

(٣) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي في سننه، وصححه الألباني في صحيح الجامع والصحيحة رقم ٢٧٢ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٦٣٧.

المؤمن في الدنيا ؛ لتكون حظه من النار يوم القيامة »(١).

وقال ﷺ : « الحمى حظ المؤمن من النار يوم القيامة »(٢).

وقال ﷺ : « الحمى حظ كل مؤمن من النار »(٣).

وقال ﷺ : « الحمى كير من جهنم ، فما أصاب المؤمن منها كان حظه من النار »(٤).

وقال ﷺ : « الحمى كير من جهنم ، وهي نصيب المؤمن من النار »(٥).

قال المناوي :

أي أنها تسهل عليه الورود حتى لا يشعر به أصلًا .

وقال : أي أنها تكفر ما يوجب من النار ، وهي سوط الجزاء الذي أهل الدنيا بأجمعهم مضروبون به .

وقال : « الحمى كير من نار جهنم » فإذا ذاق لهيبها في الدنيا لا يذوق لهب جهنم في الأخرى .

وقال أيضًا : « الحمى كير من جهنم » أي حقيقة أرسلت منها إلى الدنيا ، نذيرًا للجاحدين ، وبشيرًا للمقربين(٦).

---

(١) صحيح : رواه أحمد ، والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٢ .

(٢) صحيح : رواه ابن أبي الدنيا عن عثمان ، ورواه ابن عساكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨١ .

(٣) صحيح : رواه البزار عن عائشة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٢ ، والصحيحة رقم ١٨٢١ .

(٤) حسن : رواه أحمد عن أبي أمامة ، ورواه الطحاوي ، وأبو بكر الشافعي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٣ .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن أبي ريحانة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٨٥ .

(٦) فيض القدير (٣/٤٢١ ، ٣/٤١٩) .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ولد العبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة ، وسموه بيت الحمد »(١).

قال المناوي :

قال الطيبي : رجع السؤال إلى تنبيه الملائكة على ما أراد الله من التفضل على عبده الحامد ؛ لأجل تصبره على المصائب ، وعدم تشكّيه ، بل إعداده إياها من النعم الموجبة للشكر ، ثم استرجاعه ، وأن نفسه ملك لله وإليه المصير .

وقال أولًا : ولد عبدي أي فرع شجرته ، ثم ترقى إلى « ثمرة فؤاده » أي نقاوة خلاصته ، فإن خلاصة المرء الفؤاد ، والفؤاد إنما يعتد به لمكان اللطيفة التي خلق لها فحقيق لمن فقد تلك النعمة ، فتلقاها بالحمد ، أن يكون هو محمودًا حتى المكان الذي يسكنه ولذلك ، قال : « فيقول الله تعالى » لملائكته أو لمن شاء من خلقه : « ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة » يسكنه في الآخرة « وسموه بيت الحمد » .

موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب ، وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب ، يا له من صدع لا يشعب ، يوهي القوى ويقوي الوهى ، ويوهن العظم ، ويعظم الوهن ، مرّ المذاق ، صعب لا يطاق ، يضيق عنه النطاق ، شديد على الإطلاق ، لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل ، ووعد عليه بالأجر الجزيل ، وبنى له في الجنة ذاك البناء الجليل(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « الرقوب التي لا يموت لها ولد »(٣).

---

(١) رواه الترمذي عن أبي موسى ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٨٠٧ ، والسلسلة الصحيحة ١٤٠٨ .

(٢) فيض القدير (١/٤٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا عن بريدة ، ورواه البزار والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٥٥٠ ، وأحكام الجنائز ١٦٤ .

قال المناوي :

لا ما تعارفه الناس أنها التي لا يعيش لها ولد ، فإنه إذا مات ولدها قبلها تلقاها من أبواب الجنة ، فأعظم بها من منّة[(١)].

وقال ﷺ : « الرقوب التي لا فرط لها »[(٢)].

نزول الموت وأحواله[(٣)]:

احذر أن يفضحك ميراثك يوم موتك ، من صفّى صُفِّيَ له ، ومن كدّر كُدّر عليه ، فمن كان على الخير في حياته لقي الخير عند مماته .

قال رسول الله ﷺ : « من مات على شيء بعثه الله عليه »[(٤)] .

قال المناوي :

أي يموت على ما عاش عليه .

ورسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله » . قيل : كيف يستعمله ؟ قال : « يفتح له عملًا صالحًا بين يديْ موته حتى يرضى عليه من حوله »[(٥)].

وقال ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرًا عسله » . قيل : وما عسله ؟ قال : « يفتح له عملًا صالحًا قبل موته ثم يقبضه عليه »[(٦)].

---

(١) فيض القدير (٤/٥٧) .

(٢) صحيح : رواه البخاري في التاريخ عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥٥٠ .

(٣) انظر جمعي عن الموت المسمَّى بـ « سكب العبرات للموت والقبر والسكرات » .

(٤) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن جابر وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤١٩ .

(٥) صحيح : رواه أحمد والحاكم عن عمرو بن الحمق ، ورواه ابن حبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠١ .

(٦) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي عِنَبَة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٤ .

وقال رسول الله ﷺ : « من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »(١).

قال ابن قيم الجوزية :

إن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بليّة خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له ، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى ، والإنابة إليه ، والجمعية عليه ، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ، ولا يطاوعه لسانه لذكره ، وإنْ ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه ، فينحبس القلب على اللسان ، بحيث يؤثر الذكر ولا ينحبس القلب واللسان على المذكور ، بل إنْ ذكر أو دعا ذكر بقلب لاهٍ ساهٍ غافلٍ ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ، ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي ، كمنْ له جند يدفعون عنه الأعداء ، فأهمل جنده ، وضيّعهم وأضعفهم ، وقطع أخبارهم ، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة .

هذا ، وثَمَّ أمر أخوف من ذلك ، وأدهى منه وأمَرّ ، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى ، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة ، كما شاهد الناس كثيرًا من المحتضرين ، أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم:قل : لا إله إلا الله فقال : آه آه لا أستطيع أن أقولها .

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله . فقال : شاه رخ(٢) غلبتك ثم قضى .

وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله . فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاتنا تنتنا حتى قضى .

وقيل لآخر ذلك فقال : ما ينفعني ما تقول ، ولم أدع معصية إلا ركبتها ، ثم قضى ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك فقال : وما يغني عني ، وما أعرف أني صليت لله صلاة ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة وعن عبادة .

(٢) اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج ؛ لأنه كان في حياته مفتونًا بلعبه .

ولم يقلها .

وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى .

وقيل لآخر فقال : كلما أردت أن أقولها ، ولساني يمسك عنها .

وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول : لله فلس ، لله فلس ، لله حتى قضى .

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه لا إله إلا الله ، وهو يقول : هذه القطعة رخيصة ، هذا مشتري جيد ، هذه كذا حتى قضى .

فسبحان الله !! كم شاهد الناس من هذا عِبرًا ، والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم .

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان ، واستعمله فيما يريد من معاصي الله ، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله ، وعطّل لسانه عن ذكره ، وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه ، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع ، وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته ، فإن ذلك آخر العمل ، فأقوى ما يقوم عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو في تلك الحالة ، فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ [إبراهيم : ٢٧].

فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله قلبه عن ذكره ، واتبع هواه وكان أمره فرطًا ؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه ، متعبد لهواه ، أسير لشهواته ، ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة عن طاعته ، مشتغلة بمعصيته أن يوفق للخاتمة بالحسنى .

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين ، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعًا بالأمان : ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ [القلم : ٣٩-٤٠] .

كما قيل :

يا آمنا مع قبح الفعل منه أَهَلْ أتاك توقيع أمنٍ أنت تملكه؟
جمعت شيئين : أمنا واتباع هوًى هذا ، وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرّطت في الزرع وقت البذر من سفه فكيف عند حصاد الناس تدركه ؟
هذا ، وأعجب شيء فيك زهدك في دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذًا بالله ؟ أنت ، أم الـ ـمغبون في البيع غبنًا سوف تدركه

لما نزل الموت بأبي شجاع فناخسرو بن عضد الدولة لم يسمع منه إلا قوله: ﴿ ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه ﴾[1] .

ويروى أنه قال قبل ذلك شعرًا يمدح به نفسه ؛ منه قوله :

ليس شرب الراح إلا في المطر وغناء من جوار في السحرْ
غالبات سالبات للنُّهى ناعمات في تضاعيف الوترْ
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح مَنْ فاق البشرْ
عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلّاب القدرْ

قال أبو منصور الثعالبي : لم يفلح بعد هذا البيت[2] جزاءً وفاقًا .

انظر إلى المسيء العاصي الذي كان يتعلل بعسى ولعلّ ، ويرى جنده الأفلّ ، وحزبه الأقلّ ، وناصره الأذلّ ، فلا يرعوي ولا يزدجر ، ولا يفكر ولا يعتبر ، ولا ينظر ولا يستبصر ، حتى إذا وقعت رايته ، وقامت قيامته ، وهجمت عليه منيته، وأحاطت به خطيئته، فانكشف له الغطاء، وتبدت له موارد الشقاء، صاح واخيبتاه ! واثكل أماه ! واسُوء منقلباه !.

هيهات هيهات ، ندم والله حيث لا ينفعه الندم ، وأراد التثبيت بعدما زلّت

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي تحقيق د . محمد جميل غازي من ص١٣٠ - ١٣٣ ، طبع المدني .

(٢) العاقبة في ذكر الموت والآخرة لعبد الحق الأشبيلي تحقيق خضر محمد خضر ص١٣٠ مكتبة دار الأقصى الكويت .

به القدم ، فخرّ صريعًا لليدين والفم ، إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[١].

في سنة (٥٥٠) هـ كان أحمد بن الحريزي يُعذِّب الناس بين يديه ، يعلق الرجال بأرجلهم والنساء بثديهنّ ، ويوميء إلى الجلاد : الرأس ، الوجه . ودخل الحمام فدخل عليه ثلاثة ، فضربوه بالسيوف حتى قطّعوه ، فحمل إلى بغداد ودفن بها ، فأصبح وقد خسف بقبره[٢] جزاءً وفاقًا .

وانظر نهاية شخصية كويتية كانت تسابق الشيطان إلى المعاصي والآثام ، فلم تكن هناك معصية قديمة أو حديثة إلا وكان هذا الشاب سباقًا إليها ، بل كان يدعو أصدقاءه لفعلها ، حتى مات ولم يجاوز عمره الثلاثين عامًا .

فقد كان همه الكأس والغانية ، ثم تطوّر حاله إلى الحشيش والمخدرات ، فجاء اليوم الذي ودّع فيه الحياة ، فشرب في ذلك اليوم شربًا كثيرًا حتى سكر ، فلم يكد يميّز بين سماء أو أرض ، وزاد في شربه حتى تناول المخدّر ، وأخذ يلتهم منه حتى تَقَيّأ ما في بطنه كله ، ومات بعد ذلك .

وشخصية كويتية دائمة السفر إلى بلاد جنوب شرق آسيا كل صيف ، وبالأخص إلى دولة « تايلاند » ، فقد كان صاحب القصة متزوجًا ولديه أطفال ، وعمره لم يناهز الثلاثين عامًا ، إلّا أنه ما زال على عادته القديمة ، لا يفكر إلا في شهواته وملذاته سواء أكانت في الحلال أم في الحرام ، لقد سافر من دولة « الكويت » ووجهه أبيض من بياض البيض ، وكله شباب وقوة ، وفي إحدى الليالي الساهرة هناك تعرّف على راقصة عاهرة ، فرافقها إلى إحدى الشقق ، وكان بانتظاره ملك الموت ، فما إن قرب منها وجاءت اللحظة الحاسمة نادى المنادي : الرحيل الرحيل .. فقبضه ملك الموت ، ورجع إلى بلده محملًا بالتابوت ، وفتح التابوت ، وإذا بالمفاجأة الكبرى ، وهي أن وجهه أصبح لونه أسود من سواد القار، هكذا أخبرني أقرب الناس إليه، فالجزاء من جنس العمل، ومن حسنت

---

(١) كناية عن الموت .

(٢) شذرات الذهب للعماد الحنبلي (٤/١٥٥) .

بدايته حسنت نهايته ، وهذا جزاء من أساء بدايته فأسيئت نهايته[١].

قال الإمام عبد الحق الأشبيلي في كتابه العاقبة : مر بعض الصالحين بيهودي ميت قد أوصى أن يدفن ببيت المقدس ، فقال : أيكابر هؤلاء الأقدار ؟ أما علموا أنهم لو دفنوا في الفردوس الأعلى ، لجاءت لظى بأنكالها حتى تأخذه إليها ، وتنطلق به معها .

ثم قال رحمه الله عن سوء الخاتمة : ربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ، ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ، ونصيب من الافتراء ، فملك قلبه ، وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاءه الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن أعاد عليه وأعاد .

يروى أن بعض رجال الناصر بن علناس نزل به الموت ، فجعل ابنه يقول له : قل:لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه ، فأعاد هو ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاي ، ثم قال لابنه : يا فلان ، الناصر إنما يعرفك بسيفك فالقتل القتل . ثم مات .

وقيل لآخر وقد نزل به الموت : قل : لا إله إلا الله فقال : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والجنان الفلاني افعلوا فيه كذا .

هذا فيما حدثت عنه ولم أشهده ، وفيما أذن لي أبو طاهر السلفي أن أخطه في الديوان الذي وقع فيه هذا الحديث أن رجلًا نزل به الموت ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية : ده يازده دوازده ، تفسير عشرة أحد عشر اثنا عشر ، كان هذا الرجل من أهل العمل والديوان ، فغلب عليه الحساب والميزان .

كما روي أن رجلًا نزل به الموت ، فقيل له : قل:لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمّام منجاب ؟.

---

(١) الوقت عمار أو دمار (ج٢/٨٤-٨٧). جاسم محمد بدر المطوع ، دار الدعوة بالكويت.

وهذا الكلام فيه قصة ؛ وذلك أن رجلًا كان واقفًا على باب داره ، وكان بابها يشبه باب حمام ، فمرّت به جارية لها منظر ، وهي تقول : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال لها : هذا حمام منجاب ، وأشار إلى داره ، فدخلت الدار ، فدخل وراءها ، فلما رأت نفسها معه في داره وليست بحمام ، علمت أنه خدَعها ، فأظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه على تلك الخلوة في تلك الدار ، وقالت له : يصلح أن يكون عندنا ما يطيب به عيشنا ، وتقر به عيوننا . فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين ، وبكل ما تشتهين ، وخرج فتركها في الدار ولم يغلقها ، وتركها مفتوحة على حالها ، ومضى فأخذ ما يصلح لها ، ورجع ودخل الدار ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم يجد لها أثرًا ، فهام الرجل بها ، وأكثر الذكر لها ، والجزع عليها ، وجعل يمشي في الطرق والأزقة وهو يقول :

يا ربَّ قائلةٍ يومًا إذا بلغت   أين الطريق إلى حمام مَنْجابِ

وبعد أشهر مرّ في بعض الأزقة ، وهو ينشد هذا البيت ، وإذا بجارية تجاوبه من طاقٍ وتقول :

هلّا جعلتَ لها إذْ ظفرتَ بها   حرْزًا على الدارِ أو قُفْلًا على البابِ

فزاد هيمانه واشتد هيجانه ، ولم يزل كذلك حتى كان من أمره ما ذكر . فنعوذ بالله من المحن والفتن .

ويروى أن رجلًا عشق شخصًا ، واشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه حتى وقع لما به ، ولزم الفراش من أجله ، وتمنع ذلك الشخص واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط تمشي بينهما حتى وعد بأن يعوده ، فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمّه ، وجعل ينتظر الميعاد الذي ضُربَ له ، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الماشي بينهما ، وقال : إنه وصل معي إلى بعض الطريق ورجع ، فرَغّبت إليه وكلّمته في إنجاز وعده ، والوفاء بعهده ، فقال : إني أخاف الفضيحة ، ولا أدخل مداخل السوء والرّيب ، ولا أعرض نفسي لمواقع التهم ، وسألته فأبى وانصرف ، فلما سمع البائس هذا سقط في يده ، وعاد إلى أشد مما كان به ، وبدت علائم الموت وأماراته عليه .

قال الراوي : فسمعته يقول وهو في تلك الحال :

سلـم يـا راحـة العليـلِ وبُرءَ داءِ المُدنِفِ[1] النحيلِ
لقـاك أشهـى إلى فؤادي من رحمـةِ الخالـق الجليلِ

فقلت له : يا فلان ، اتق الله ، فقال : قد كان ، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت قد قامت عليه[2] .

وفي عصرنا هذا ممثل عاش عمره في السينما وعلى خشبة المسرح، فمات عليه.

وممثل آخر مُهرِّج ، كان يمثل دور الميت فحرّكوه على خشبة المسرح فإذا هو ميت . والجزاء من جنس العمل .

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ومن مات على شيء بعثه الله عليه .

وهذي نماذج من وفيّات السباقين إلى الرحمن ، تبين كون الجزاء من جنس العمل .

فهذا سعد بن معاذ يقول عن جرحه الذي مات به : اللهم افجره ؛ أي شوقًا إليك ، فيهتز عرش الرحمن فرحًا بموته .

وهذا حنظلة بن أبي عامر ، يخرج للجهاد ويترك فراشه وزوجه ، ملبيًا نداء رسول الله ﷺ فيصاب فتغسله الملائكة .

والربيع بن خثيم حليف الخوف والأحزان والأشجان ، تدخل عليه ابنته وهو في السياق فتقول : واكرب أبتاه ، فيقول لها : بل قولي : وافرحاه ، واطرباه ، لقي أبي الخير .

وربعي بن حِراش ، الذي عاهد الله ألا يراه ضاحكًا في دار الدنيا ، يبتسم على مغسله . انتهت الدنيا بأحزانها ، وأقبلت الآخرة بسرورها . والجزاء من جنس العمل .

---

(١) الذي ثقل عليه المرض .

(٢) العاقبة للأشبيلي ص١٧٨/١٨٠ .

ومحمد بن المنكدر ، الذي عرفته الليالي متهجدًا باكيًا ، وكانت أمه تستعين عليه بأخيه عمر بن المنكدر وأبي حازم حتى يكف عن البكاء طوال الليل ، فلما جاءه الموت أتى صفوان بن سليم إليه ، فما زال يهوّن عليه الأمر ، وينجلي عن محمد ، حتى لكأن وجهه المصابيح ، ثم قال له محمد : لو ترى ما أنا فيه لقرّت عينك . ثم قضى رحمه الله[١].

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير ، الإمام الرباني الذي اشترى نفسه من الله ست مرات ؛ يعني يتصدق كل مرة بديته .

والذي قال فيه الإمام مالك : ربما انصرف عامر من العتمة ، فيعرض له الدعاء ، فلا يزال يدعو إلى الفجر .

سمع المؤذن وهو يجود بنفسه ، فقال : خذوا بيدي . فقيل : إنك عليل . قال : أسمع داعي الله ، فلا أجيبه ؟! فأخذوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ، ثم مات[٢].

وشيخ الشافعية ابن الإسماعيلي ، إسماعيل بن شيخ الإسلام أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي ، وكان إمام زمانه في الفقه وأصوله ، مع الورع الثخين ، والمجاهدة والنصح للإسلام ، والسخاء وحسن الخلق .

تُوفي إكرامًا من الله له في صلاة المغرب ، وهو يقرأ ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ففاضت نفسه ، رحمه الله[٣].

وشيخ الإسلام ، الفقيه نصر المقدسي الشافعي ، صاحب التصانيف والأمالي ، حكى عنه تلميذه الفقيه نصر الله المصيصي أنه قبل موته بلحظة سمعه وهو يقول : يا سيدي أمهلوني ، أنا مأمور وأنتم مأمورون ، ثم سمعت المؤذن بالعصر ، فقلت : يا سيدي ، المؤذن يؤذن ، فقال : أجلسني ، فأجلسته فأحرم بالصلاة ، ووضع

---

(١) الثبات عند الممات ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٢) انظر ترجمه عامر في السير (٥/٢١٥-٢٢٠) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/٨٧-٨٨) .

يده على الأخرى وصلى ، ثم تُوفي من ساعته ، رحمه الله[١].

والإمام الزبيدي العابد الواعظ ، محمد بن يحيى بن علي القرشي .

قال ابن عساكر : قال ولده إسماعيل : كان أبي في كل يوم وليلة من أيام مرضه يقول: الله الله، نحوًا من خمسة عشر ألف مرة، فما زال يقولها حتى طَفِيء[٢].

والإمام الحافظ عبد الغني المقدسي ، العابد الأثري ، علم الحفاظ . قال له ابنه أبو موسى في مرض موته ، ما تشتهي ؟ فيقول : أشتهي الجنة ، أشتهي رحمة الله . لا يزيد على ذلك ، أشتهي النظر إلى وجه الله سبحانه .

وجاء جماعة يعودونه ، فسلموا ، فردّ عليهم ، وجعلوا يتحدثون ، فقال : ما هذا ؟ اذكروا الله ، قولوا : لا إله إلا الله ، فلما قاموا جعل يذكر الله بشفتيه ، ويشير بعينيه ، فقمت لأناول رجلًا كتابًا من جانب المسجد ، فرجعت وقد خرجت روحه[٣].

وشيخ الإسلام حماد بن سلمة ، قال عفان : قد رأيت من هو أعبد من حماد بن سلمة ، لكن ما رأيت أشد مواظبة على الخير ، وقراءة القرآن ، والعمل لله تعالى منه .

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي : لو قلت لكم : إني ما رأيت حماد ابن سلمة ضاحكًا لصدقت ، كان مشغولًا ؛ إما أن يحدث ، أو يقرأ ، أو يسبح ، أو يصلي ، قد قسم النهار على ذلك . قال يونس بن محمد المؤدب : مات حماد بن سلمة في الصلاة في المسجد[٤].

والجنيد رحمه الله ، يقول الجريري واصفًا وفاته : كنت واقفًا على رأس الجنيد في وقت وفاته ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت له : ارفق بنفسك . فقال لي :

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/١٤٢-١٤٣) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٣١٦ -٣١٩) .
(٣) سير أعلام النبلاء ، ترجمة الحافظ (٢١/٤٤٣-٤٧١) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٧/٤٤٤-٤٥٦) .

يا أبا محمد ، أرأيت أحدًا أحوج إليه مني في هذا الوقت ، وها أنا ذا تطوى صحيفتي ، وكان قد ختم القرآن الكريم ، ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية ثم مات ، رحمه الله .

وشيخ الإسلام ابن قدامة ، الذي لا يكاد يسمع دعاءً إلا حفظه ودعا به ، يموت وهو عاقد على أصابعه يسبح[١].

وعبد الله بن أبي السرح يموت وهو يصلي .

والإمام أبو الحسن علي بن مسلم بن محمد الفقيه ، توفي وهو ساجد في صلاة الفجر ، في ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة[٢].

والإمام إبراهيم بن هانيء النيسابوري ، صاحب الإمام أحمد ، الذي قال الإمام أحمد لولده : لستُ أطيق ما يطيق أبوك ؛ يعني من العبادة[٣]. والذي كان عرف بكثرة صومه ، انظر إلى خاتمته يرويها لنا أحد أصحابه : حضرت وفاة أبي إسحاق النيسابوري ، فجعل يقول لابنه إسحاق : ياإسحاق ، ارفع الستر . قال : يا أبت ، الستر مرفوع . قال : أنا عطشان . فجاءه بماء قال : غابت الشمس ؟ قال : لا . قال : فردّه ، ثم قال : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ [الصافات : ٦١] ، ثم خرجت روحه[٤] .

أبو جعفر القارىء ، أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات ، واسمه يزيد ابن القعقاع المدني ، والذي قرأ عليه نافع ، وحدث عنه مالك بن أنس ، وكان يقرىء قبل وقعة الحرة ، والذي مسحت على رأسه أم سلمة ، ودعت له ، وكان يصلي خلف القراء في رمضان ، يلقنهم يؤمر بذلك .

قال نافع : لما غُسِّل أبو جعفر ، نظروا ما بين نحره إلى فؤاده كورقة المصحف ، فما شك من حضره أنه نور القرآن[٥] .

---

(١) شذرات الذهب ، لابن عماد الحنبلي (٥/٢٨) .

(٢) طبقات الشافعية ، للسبكي (٤/٢٨٣) .

(٣) تاريخ بغداد (٦/٢٠٦) .

(٤) تاريخ بغداد (٦/٢٠٦) .

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/٢٨٧ ، ٢٨٨) .

وأسد الشام عبد الله اليونيني ، الذي كان دائم الذكر كثيره ، يحكي ابن كثير كيف كان موته فيقول : انصرف من الصلاة ، فقال للشيخ داود المؤذن ، وكان يغسل الموتى : انظر كيف تكون غدًا ، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ، ويتذكر أصحابه ، ومن أحسن إليه ، ولو بأدنى شيء ، يدعو لهم ، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ، ثم استند يذكر الله وفي يده سبحة[١]. فمات وهو كذلك جالس لم يسقط ، ولم تسقط السبحة من يده ، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك فجاء إليه فعاينه كذلك ، فقال : لو بنينا عليه بنيانًا ، هكذا يشاهد الناس منه آية ، فقيل له : ليس هذا من السنة ، فنحي وكفن ، وصلي عليه ، ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى ، رحمه الله[٢].

وانظر إلى حسن الخاتمة ، وكيف يكون الجزاء من جنس العمل فيما يحكيه الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في تباريحه .

حدثني أخي الشيخ محفوظ الشنقيطي ، مدير عام العلاقات بمجمع الملك فهد للمصحف الشريف ، عن شيخ القرّاء بالمجمع الشيخ عامر السيد عثمان رحمه الله تعالى أنه فقد حباله الصوتية في السنوات السبع الأخيرة من حياته ، وكان يدرّس تلاميذه القراءة فلا يفصح لهم إلا بشهيق وإيماء ، ثم مرض مرض الوفاة ، وكان طريح السرير الأبيض بالمستشفى ، ففوجيء أهل المستشفى بالرجل المريض فاقد الحبال الصوتيه يقعد ويدندن بكلام الله ، بصوت جهوري جذاب ، مدة ثلاثة أيام ختم فيهنّ القراءة، من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، ثم أسلم الروح إلى بارئها.

قال أبو عبد الرحمن : وكان خال أبي وابن عم جدي عمر بن محمد العقيل ، رحمهم الله ، مؤذنًا بمسجدنا الحسيني خمسة وثلاثين عامًا ، أدركت منها ربع قرن ، لم يتخلف عن فرض واحد لحرّ أوقرّ ، ومات في الرياض وعمره

---

(١) جوّزها ابن تيمية ، وللشيخ الألباني كُتيب في أنه لا يصح فيها حديث .

(٢) البداية والنهاية (١٠١/١٣) .

تسعون عامًا ، وكان مقعدًا ، فلما حضرته الوفاة بعد صحوة الموت وجده ابنه محمد واقفًا بعد أن كان مقعدًا ، يصدح بجمل الأُذان : الله أكبر .. إلخ .

وأهل الرقائق والوعظ يذكرون كثيرًا من هِجِّيرى الشيوخ إذا خرفوا ، وأحسنهم هجيرى من كان سلوكه حميدًا ، ونيته سليمة ، ومعتقده محققًا ، فإنه يلهج بما كان عليه من النور والضياء(١).

حسن الظن بالله :

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : أنا عند ظن عبدي بي ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر »(٢).

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظن خيرًا فله ، وإن ظن شرًّا فله »(٣).

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه ، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه »(٤).

وقال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء »(٥).

نزول الموت وأحواله :

قال الله تعالى :

﴿ فأما إن كان من المقربين فَرَوْح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين

---

(١) المجلة العربية ، العدد ١٧١ ، ص٧٠-٧١ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو نعيم في الحلية وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٠١ .

(٣) رواه أحمد عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩١ .

(٤) رواه مالك والبخاري وأحمد والنسائي عن أبي هريرة .

(٥) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن واثلة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤١٩٢ .

فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ [الواقعة : ٨٨-٩٤] .

قال ابن كثير :

﴿ **فأما إن كان من المقربين** ﴾ ﴿ **فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ أي فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما في حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة ، في الجسد الطيب ؛ كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿ **فروح** ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة ، وكذا قال مجاهد : إن الروح الاستراحة ، وقال أبو حرزة : الراحة من الدنيا . وقال سعيد بن جبير والسدي : الروح : الفرح .

وعن مجاهد ﴿ **فروح وريحان** ﴾ جنة ورخاء ، وقال قتادة : فروح : فرحمة وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : وريحان : ورزق .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك ، من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن .

﴿ **وجنة نعيم** ﴾ وقال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين ، حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيقبض روحه فيه .

﴿ **فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم** ﴾ فإذا بُشِّر بذلك أحب لقاء الله عز وجل ، والله تعالى للقائه أحب .

﴿ **وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ قال البخاري : أي مُسَلَّم لك أنك من أصحاب اليمين .

﴿ **فسلام لك من أصحاب اليمين** ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ؛ أي لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

وقال قتادة وابن زيد : سلم من عذاب الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله ، كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين ، وهذا معنى حسن ويكون ذلك كقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**

تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلًا من غفور رحيم ﴾ [فصلت : ٣٠-٣٢][١].

عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «يُبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا حُضر المؤمن ، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي راضية مرضيًّا عنك ، إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان ؛ فيخرج كأطيب ريح المسك ؛ حتى إنه ليناوله بعضهم بعضًا ، حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما أطيب هذا الريح التي جاءتكم من الأرض ! فيأتون به أرواحَ المؤمنين ، فَلَهُمْ أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه ، فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ ماذا فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه فإنه كان في غم الدنيا ، فإذا قال : أما أتاكم ؟ قالوا : ذُهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا حُضر أتته ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك ، إلى عذاب الله ، فيخرج كأنتن ريح جيفة ، حتى يأتوا بها باب الأرض ، فيقولون : ما أنتن هذه الريح ! حتى يأتوا بها أرواح الكفار »[٣].

وقال ﷺ : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان ، يصعدان بها - فذكر من ريح طيبها - ويقول أهل السماء : روح طيبة ، جاءت من قِبل الأرض ، صلى الله عليك ، وعلى جسدٍ كنت تعمرينه ، فينطلق به إلى ربه ، ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه - فذكر من نتنها - ويقول أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض ، فيقال : انطلقوا

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٠١/٤ - ٣٠٢) .

(٢) رواه أحمد ، وقال ابن كثير في التفسير (٤١٦/٤): إسناد صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه .

(٣) صحيح : رواه النسائي والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٠٤ .

به إلى آخر الأجل »[1].

وقال رسول الله ﷺ : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السِّقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . فتعاد روحه ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت . فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيّب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح . فيقول : ربِّ أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ؛ اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السُّفُّود[1] من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا . فيُستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء** ﴾ [الأعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحًا ، فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ؛ فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء : أن كذب عبدي ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها[2] ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : ربِّ لا تقم الساعة »[3] .

فانظر كيف يلوح الجزاء من جنس العمل واضحًا جليًّا ، كيف يتمثل له عمله أنيسًا له ، أو موحشًا له في قبره .

---

(١) عود من الحديد ، ساخن .

(٢) ريحها الشديدة الحرارة .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن خزيمة والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في شعب الإيمان والضياء عن البراء ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٦٧٢ .

فإما خاتمة بيضاء كعَمَله الحسن ، وملائكة بيض الوجوه ، وكفن من حريرة بيضاء ، وريح طيبة ، كنفسه وروحه الطيبة ، ويأتيه عمله حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، للمؤمن طيب العمل .

وإن كان سيىء العمل أسوده ، فخاتمة سوداء كعمله الأسود ، وملائكة سود الوجوه ومسوح ، وريح جيفة ، ويأتيه عمله قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، للعاصي سيىء العمل . جزاءً وفاقًا .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحًا قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقول : فلان . فيقال:مرحبًا بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى » .

فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان فيقال : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنها لا تفتح لك أبواب السماء ، فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر .

فيجلس الرجل الصالح في قبره ، غير فزع ولا مشغوف(١)، ثم يقال له : فيم كنت ؟ فيقول : كنت في الإسلام . [فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : محمد رسول الله ﷺ ، جاءنا بالبينات من عند الله] فصدقناه ، فيقال له : هل رأيت الله ؟ فيقول : ما ينبغي لأحد أن يرى الله(٢). فيفرج له فرجة قبل النار ،

---

(١) مذعور .
(٢) أي : يقظة في الدنيا .

فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا ، فيقال له : انظر إلى ما وقاك الله تعالى ، ثم يفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها ، وما فيها ، فيقال له : هذا مقعدك ، ويقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله .

ويجلس الرجل السوء في قبره فزعًا مشغوفًا ، فيقال له : فيم كنت ؟ فيقول : لا أدري . فيقال له : ما هذا الرجل ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون قولًا فقلته . فيفرج له فرجة قبل الجنة ، فينظر إلى زهرتها وما فيها ، فيقال له : انظر إلى ما صرف الله عنك ، ثم يفرج له فرجة إلى النار ، فينظر إليها يحطم بعضها بعضًا فيقال : هذا مقعدك ، على الشك كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله[1].

فالصالح يقال له : على اليقين كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله . وجزاؤه من جنس عمله ، والطالح يقال له : على الشك كنت ، وعليه مت ، وعليه تبعث إن شاء الله . وجزاؤه من جنس عمله .

إذا كان الرجل صالحًا « يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين ، ثم ينوّر له فيه ، ثم يقال : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

ينور له فيه كنور عمله ، والجزاء من جنس العمل ؛ « يملأ عليه خضرًا إلى يوم يبعثون »[2] .

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ غَسَّل ميتًا فستره ، ستره الله من الذنوب ، ومن كفنه كساه الله من السندس »[3].

والجزاء من جنس العمل .

قال المناوي : يحتمل أن يكون المراد ستر عورته ، ويحتمل أن المراد ستر

---

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٩٦٤ .

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي وهو صحيح .

(٣) رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٧٩ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٢٣٥٣ .

ما يبدو له من علامة ردية ؛ كظلمة ، ويحتمل الأمرين وهو أظهر .

« ومن كفنه كساه الله من السندس » قال النووي : فيه أنه يسن إذا رأى الغاسل ما يعجبه أن يذكره ، وإذا رأى ما يكره لا يحدث به ، وهكذا أطلقه أصحابنا ، لكن قال صاحب البيان : لو كان الميت مبتدعًا معلنًا ببدعته ، فينبغي ذكر ما يكره منه ؛ زجرًا للناس عن البدعة[1].

أخي ، لا تكف دمعك حتى ترى في المعاد ربعك ، ولا تكحل عينك بنوم حتى ترى حالك بعد اليوم ، ولا تبت وأنت مسرور حتى تعلم عاقبة الأمور .

أخي ، إن الموتى لم يبكوا من الموت ، ولكنهم يبكون من حسرة الفوت ، فاتتهم والله دار لم يتزودوا منها ، ودخلوا دارًا لم يتزودوا لها ، فأي ساعة مرّت على من مضي ؟ وأي ساعة بقيت علينا ؟ .

أخي ، إن الآمال تطوى ، والأعمار تفنى ، والأبدان تحت التراب تبلى ، وإن الليل والنهار يتراكضان كتراكض البريد ، يقربان كل بعيد ، ويبليان كل جديد ، وفي ذلك ما يلهي عن الشهوات ، ويسلي عن اللذات ، ويرغب في الباقيات الصالحات .

أخي ، اعمل ما وجدت سبيلًا للعمل ، وما دمت في فسحة ومَهَل ، ومهدّ المضجع ، ووطىء لذلك المصرع.

فياهذا سترحل عن قريب إلى قوم كلامهمُ السكوتُ

* * *

(١) فيض القدير (٦/١٨٥) .